مسابقة الأدب العربي

البهاء زهير

للدكتور زكي مبارك

تمهيد

ينص منشور وزارة المعارف على أن المتسابقين يُمتحنون تحريريًّا فى الكتب الآتية :

١ — ديوان البهاء زهير وديوان عَلَم الدين المِيَوى

٢ — كتاب أخبار أبي تمام للصولى

ومعنى هذا أن الديوانين الأولين جُعِلا فى حكم الكتاب الواحد ، لأنهما لشاعرين عاشا فى عصر واحد وفى بيئة واحدة ، ولأنهما يقتربان فى النازع الشعرية بعض الاقتراب ، وسنعرف هذه الشئون حين نوازن بينهما فى الأحاديث المقبلات

حياة البهاء زهير

للأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق بحثٌ جيِّد عن « البهاء زهير » ، وفى ذلك البحث كلامٌ مفصَّل عن حياة الشاعر ، فمن الواجب أن يرجع الطلبة إليه ، وهو يوجد فى مكتبات المدارس الأميرية . وإنما أشير بالرجوع إلى هذا البحث ، لأنه أوفى ما كُتب فى ترجمة البهاء زهير ، ولأن الاطلاع عليه يقدم إلى الطلبة فوائد أدبية وتاريخية لا يظفرون بمثلها إلا بعد عناء

ومن طريف الحوادث أن وزارة المعارف كانت رأت توزيع هذا البحث على تلاميذ المدارس الثانوية ، ولكنّ ناساً من أهل الأسكندرية ثاروا وطالبوا بسحبه من مدارس البنات ، بسبب قطعة وردت فيه ، وهى أبيات من شعر البهاء تُشبه ما يسمونه الأدب المكشوف ، مع أنها لا تستوجب العنت فى اللجاج ، ومع أنها فى كتاب عُرف مؤلفه بالحرص على مراعاة الذوق فى الكتابة والحديث

رأى الدكتور طه حسين

حين أظهر الشيخ مصطفى بحثه عن البهاء تفضَّل وأهدانى نسخة ، فحدثت الدكتور طه فى تلك الهدية فقال : لقد أتعب الشيخ مصطفى نفسه فى غير طائل ، لأن البهاء زهير لا يستحق هذا المجهود ، ولن يكون من أعلام الشعر بأى حال ، فمن الظلم أن نحلّه ذلك المكان

قلت : ولكن البهاء زهير تفرّد بالرقة فى التعبير ، وتلك ظاهرة أدبية تستحق الالتفات

فقال الدكتور طه : الشعر العربى مظلوم من هذه الناحية ، فالوعورة لا تغلب إلا على الشعر الجاهلى والشعر الأموى ، ثم غَلبت السهولة بعد ذلك على أكثر الشعراء

القول الفصل

هو القول الذى نطق به التاريخ الأدبى ، فقد ثبت أن ديوان البهاء زهير ظفر بقبول لم يظفر به ديوان ، فقد طُبع عشرات المرات فى مصر وفى غير مصر ، وتُرجم شعراً إلى اللغة الإنجليزية منذ زمان ، وقال مترجمه إنه قريب الروح من شعراء الإنجليز فى القرن السابع عشر ، ومعنى ذلك أنه انتقل من الصبغة المحلية إلى الصبغة الدولية ، وهذا مغنمٌ ليس بالقليل

والواقع أن فى شعر البهاء نفحة عطرية لا نجدها عند أكثر الشعراء ، فقد كان مرهف الإحساس إلى أبعد الحدود ، وكانت قدرته على التعبير قدرةً عالية ، لأنه استطاع أن يعبر عن جلائل المعانى بعبارات هى غاية فى اللطف والإيناس

مشكلة المشكلات

هى مشكلة التعبير ، ويعزّ علىّ أن أقرر أن هذه المشكلة سيطرت على تاريخ الأدب العربى ، ولم تظفر إلى اليوم بما تستحق من الحلول

ومرجع هذه المشكلة إلى اعتبار الجزالة أساس البلاغة فى لغة العرب ، فالكلام الجزل هو الكلام البليغ ، الكلام الجدير بالانتساب إلى العرب الصُّرحاء

أما الكلام الرقيق فهو من أفانين المولدين ، لأن الحضارة

هى التى أوحت بالرقة واللطف ، ولهذا استباح الدكتور طه أن يرتاب فى كل شعر رقيق ينسب إلى العصر الجاهلى ، كما تشهد نصوص كتابه الذى أثار الناس قبل سنين

وأقول بأن الدكتور طه لم يفطن إلى مقامات الكلام عند شعراء الجاهلية ، وهى مقامات لا تعترف بوحدة الأسلوب ، وإنما تلوّن الأساليب وفقاً لما توحى به شجون الأحاديث ، فترى الجزالة هنا وترى الرقة هناك

وفى القرآن شواهد على صحة هذا القول ، فهو يُؤثر الرقة فى مقام الوعد ، ويؤثر الجزالة فى مقام الوعيد ، ونثرُ القرآن نثرٌ جاهلىٌ ، كما بينت ذلك فى كتاب « النثر الفنى » ، لأنه نزل على العرب وهم جاهليون لا إسلاميون

لحظة مع الشيخ مصطفى عبد الرازق

هى لحظة قصيرة أتعالم فيها عليه ، لأزعم أنى أعرف من أسرار البلاغة أكثر مما يعرف ، وهيهات ثم هيهات !

هذا الشيخ صورة من أدب النفس ، والتحامل عليه لا يليق ، لأنه يرحب بهجوى عليه ، ويسرّه أن أساجله فى أى ميدان ، وأنا سأشرح صدره فأقدم إليه فائدة بلاغية لم تخطر فى باله عند تأليف الكتاب

لقد نصّ فى كتابه على أن الرقة فى شعر البهاء زهير هى الطبع ، وأن الجزالة هى التطبّع ، وأن البهاء لم يُؤثر الجزالة إلا فى الظروف التى يحاول فيها منافسة خصومه من أعيان الشعراء

وأقول بأن الجزالة فى شعر البهاء قضى بها الطبع لا التطبع لأنها من وحى المقام لا من وحى التكلف ، وإلا فما الذى يريد الشيخ مصطفى أن يقول البهاء وهو يذكر انتصار الملك الكامل ، وإجلاءه الإفرنج عن ثغر دمياط ؟

هل كان ينتظر أن يصطنع لغته فى الغَزَل ، اللغة التى يرقّ بها فيقول :

سلّمْ علىّ إذا مررْ ... تَ فلا أقلّ من السلامِ
الغدر فى كل الطبا ... ع فلا أخصّك باللمام
ما أكثر العذّال فى ... ولهى عليك وفى غرامى
هَبْنى كتمتهمُ هوا ... كَ فكيف أكتمهم سقامى

هذه لغة فى رقة الخد الأسيل ، وهى هنا مقبولة لأنها أشبه بمناغاة الحبيب المحبوب ، ولكنها لا تصلح للتعبير عن اصطخاب القلوب عند انتزاع ثغر دمياط من أوشاب المغيرين

أمِن التكلف أن يقول البهاء فى مدح الملك الكامل :

بك اهتز عِطف الدِّين فى حُلَل النصر
ورُدَّت على أعقابها مِلّة الكفرِ
وليلةِ غزوٍ للعدو كأنها ... بكثرة من أرديته ليلة النحر
فياليلة قد شرّف الله قدرها ... ولا غرو إن سمّيتها ليلة القدر
سددْتَ سبيل البر والبحر عنهمُ
بسابحةٍ دُهمٍ وسابحةٍ غُرِّ
أساطيل ليست فى أساطير من مضى
بكل غرابٍ راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل هولاً وهيبةً
وإن زانه ما فيه من أنجم زُهرِ
وكل جوادٍ لم يكن قطّ مثله
لآل زهير ، لا ، ولا لبنى بدر
وباتت جنود الله فوق ضوامر
بأوضاحها تُغنى السُّراة عن الفجر
كفى الله دِمياط المكاره إنها
لَمِن قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلاّ لأنه
يحلّ محل الريق من ذلك الثغر

فهذا الشعر يراه مصطفى باشا مجاراةً للقدماء ، لغلبة الجزالة عليه . ولكن الواقع أن الجزالة هنا ضرورية ، لأن المقام لا يسمح بالرقيق

وعند مراجعة القصائد الموسومة بالجزالة نرى مقامات الكلام هى التى فرضت على الشاعر أن يختار الجزل ، وهذا من دقائق الصناعة الشعرية ، فلا موجب للحكم بأنه يخرج على الطبع ليساير القدماء

ولنذكر مثالاً ثانياً من الجزل هو قوله فى مدح الملك الصالح نجم الدين أيوب :

ولقد سعيت إلى العلاء بهمةٍ ... تقضى لسعيى أنه لا يُخفق
وسريتُ فى ليلٍ كأنّ نجومهُ ... من فرط غيرتها إلىّ تحدّق

متى وصلتُ سرادق الملك الذى
تقف الملوك ببابه تسترزق
فإليك يا نجم السماء فإننى قد لاح نجم الدين لى يتألق
الصالح الملك الذى لزمانه حُسنٌ يتيه به الزمان ورونق
ملأ القلوب مخافةً ومحبةً فالبأس يُرهَب والمكارم تعشق
فعدلت حتى ما بهـا متظلمٌ وأمنت حتى ما بهـا مسترزقُ
يا من رفضتُ الناس حين لقيته حتى ظننت بأنهم لم يُخلقوا
قيدتُ فى مصرٍ إليك ركائبى غيرى يغرِّب تارةً ويشرِّق
وحللت عندك إذ حللت بمعقلٍ يُلقى إليـه ماردٌ والأبلق
وتيقنَ الأقوام أنى بعدها أبداً إلى رُتب العلا لا أُسبق

فرُزقت ما لم يُرزقوا ، ونطقت ما لم ينطقوا ، ولحقت ما لم يلحقوا

فما عيبُ هـذا المديح حتى يقال إنه دون سائر فنون البهاء فى الطرافة والإبداع ؟

وأحب أن أذكر مثالاً ثالثاً يؤكد ما قصدت إليه من أن الجزالة فى شعر البهاء طبعٌ لا تطبُّع ، لأن المقام يوجبها كل الإيجاب .

قال فى مدح الملك الناصر يوسف :

ومذ كنت لم ترضَ النفيسةَ شيمتى ومثلُك يأباها لمثلى ويأنف
ولا أبتغى إلا إقامة حرمتى ولست بشىء غيرها أتأسف
ونفسى بحمد الله نفسٌ أبيةٌ فما هى لا تهفو ولا تتلهف
ولكنَّ أطفالاً صغاراً ونسوةً ولا أحدٌ غيري بهم يتلطف
أغار إذا هبَّ النسيمُ عليهمُ وقلبى لهم من رحمة يترجَّفُ
سرورىَ أن يبدو عليهم تنعُّمٌ وحزنىَ أن يبدو عليهم تقشف
ذخرتُ لهم لطف الإله ويوسفاً ووالله لا ضاعوا ويوسف يوسف
أكلِّف شعرى حين أشكو مشقةً كأنىَ أدعوه لما ليس يُؤلَف
وقد كان معتاداً لكل تنزّلٍ تهيم به الألبابُ حسنا وتُشغف
يلوح عليه فى التنزل رونقٌ ويظهر فى الشكوى عليه تكلف
وما زال شعرى فيه للروح راحةٌ وللقلب مَسلاةٌ وللهمِّ مصرف
يناغيك فيه الظبى والظبى أحورٌ ويُلهيك فيه الغصن والغصن أهيف

شكوت وما الشكوى إليك مذلةٌ وإن كنت منها دائماً أتأنف

هذا أيضاً شعرٌ جزل ، وهو مع ذلك برىء من التكلف ، وإن زعم الشاعر أنه تكلف !

وهل كان يمكن فى مثل هذا المقام أن يرقَّ على نحو ما يتفق له فى شكوى الصدود ؟

لكل مقام مقال ، وقد كان البهاء من أعرف الناس بمقامات الكلام .

ولكن ما هى ذاتية البهاء ؟ وما حياته فى مصر والحجاز ؟ وما مركزه بين معاصريه ؟ وما وزنه الصحيح فى تاريخ الشعر العربى ؟

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة فى الحديث المقبل . والله بالتوفيق كفيل

زكى مبارك